العصفور القطني الأصفر

قصة بقلم الدكتور سهيل ادريس

سيبقى معي نصف ليرة ، من غير شك . انهـــا الان ثلاث ليرات ونصف . لقد طرح اللـه فيها البركة اليوم . صحيح اني عملت اكثر مـــن المعتاد ، ولكن الغلة اليـوم طيبة . الحمد لله . اعطانا على قدر ما نستحق . سأصلي له هذا المساء ، بعد صلاة العشاء ، ركعتين للشكر . ثلاث ليرات ونصف : لا بأس بها . ليرة منهـــا للحـم ، ونصف للباذنجان ، واربعون قرشا للخبز وستون للارز ، ونصف ليرة للسمن . اتراني اخطأت العـد ؟ ليـــرة ، ونصف ، واربعون ، وستون ، ونصف ... لا ، لـم اخطىء سيبقى النصف اذن . وسيفرح اليوم زياد . أبقاه اللـــه لـــي . سيتحقق حلمه الذي انقضت ايام ستة وانا اهدهده له . هذا المساء يا زياد . غدا يا حبيبي . بعد الظهر يا عيوني . وحياتك صباح الغد يا زياد . حتى كـــدت اخجل منه ، واتمنى ان اجده نائما حين اعود ، على شدة شوقي اليه . اما هذا المساء ، فلـــن اكون كاذبا بعـــد : ذلك العصفور القطني الاصفر ، سيلمسه زيـاد اخيرا بأصابعه ، هـــذا المساء ، وسيملس ظهـره الناعم براحة يـــده الصغيرة ، وسيضمه الى صدره . سلمك الله لـي . سامحني يـــا حبيبي . كل يوم وانا اعدك بشرائه . هل انسى وقفتـك امام تلك الواجهة ، تنظر بعين كسيرة الى العصفور القطني الاصفر ، وتهم بأن تمد يدك اليه ؟ وحين رفعتك وقبلتك ، وعدتك ان اشتريه لك في اليوم التالي ؟ وجاءت ايـام عديدة تالية . ولكن ما حيلتي يا زياد ؟ كان الشغل هـــذا الاسبوع قليلا . وانت تعرف ــ أو لا تعرف ــ كم اكسب من هذا الشغل . ولم احمل حوائج كثيرة ، حتـى انـي احس ظهري مرتاحا ، ولا اشكو ذلك الوجع فـي ساقي . الناس يزدادون بخلا يا زيـــاد . بعضهم يزدادون بخـلا فيحملون هـم امتعتهم وحاجاتهم ، بدلا مـــن ان ينادوا العتالة ، وبعضهم يفضلون سيارات الاجـرة لتنقل لهـــم حاجاتهم . ان السيارة تنافسنا على رزقنا يا زياد . تصور ان هذا سيدوم ، فماذا نفعل بعد ذلك يـــا بني ؟ انني لا احسن عملا اخر . ولن اجعلك انت تمتهن هـــذه المهنة . ستكون افضل مني . يجب ان يكـون الأبناء افضل مـــن الآباء . ابن العتال عتال ؟ لن ارضى بذلك . ستكون افضل مني يا زياد . ستذهب الى المدرسة فـــي العام القادم . كنت اتمنى ان تذهب الى المدرسة هذا العام ، ولكنهـــم قالوا لي انك ما تزال صغيرا . واذا شئت الحق يا زياد ، ارتحت قليلا لهذا الجواب . لاني كنت اتساءل اين اجـــد لك اقساط المدرسة . ولكنني منـــذ الان سأعمل كثيرا لاوفر بعض المال ، ولادفع لك الاقساط فـي العام القادم . ولعله بعد عام او عامين ، ستخفض الاقساط ، او تلغـــى تماما . من يدري ؟ ان رفاقي العتالة يتذمرون دائما حين يتحدثون عن المدرسة ، وعن اولادهم . وكلهم لهـــم اولاد مثلك يا زياد . والعجيب انهـــم كلهم يريدون ان يعلمـوا اولادهم في المدارس . وفـــي المدارس المحترمة ايضا . ولكن الاقساط غالية ، كما يقولون . وقد ذكر لنا رئيسنا منذ ايام ان الاقساط في بلدنا هذا هي اغلى الأقساط في العالم كله . واكد ان التعليم هنا تجارة وكسب ، وتساءل لماذا لا تفرض الحكومة التعليم الالزامي ، وان يكون بالمجان . يا ليت ، يا زياد . ولكن لنفرض ان ذلك لم يحدث ؟ سأعمل ليل نهار يا زياد لتوفير هذه الاقساط ، وسأدعو اللـه ان يصلح هذه الحكومة الفاسدة !

عجبا ! اهذا دكان السمان ؟ لكأنه ينتصب لساعته ، ولم يكن موجودا من قبل .. ام انني شردت عنه واضعته ؟

حسنا . هات كيلو من الارز يا حاج محمود . ونصف ليرة سمنة . وكيلو خبزا . حسنا . يبقـــى الباذنجان . سأشتريه من دكان موسى . امـــا اللحم ، فمن ملحمـة العائلات . انقضت ثلاثة ايام لم نأكل فيها لحمـا . ثـــم فرجها الله . لا بأس . اننا لن نموت جوعا . وسليمة امرأة صالحة ، لا تطلب شيئا ، ولا تشكو شيئا . اعطاها اللـــه العافية . لا هم لها الا زياد . والا تنظيف الغرفة وترتيبها . وكم تبدو غرفتنا نظيفة كل مساء ! انني اشعر فيها براحة عجيبة . كأنما اعود اليها من سفر بعيد . ولكني لن اقيم فيها طويلا . صحيح انها نظيفة ، ولكنها صغيرة جـــدا . ولن تليق بزياد حين يكبـــر . لا شك فـــي ان الاحوال ستتحسن في المستقبل ، ويتضاعف دخلي . ومن يدري ؟ فقد اهجر العتالة الى مهنة اخرى اكثر ربحا . انني لا افهم في الحقيقة لماذا لا تقوم عندنا المصانع الكبيرة ، كما تقـوم في جميع البلاد . ان زندي قويان . وهما جديران بمصنع قوي ، بآلة اقف خلفها باعتزاز وفخر . ان الناس يتعجبون حين ارفع هذا السل ، مهما كان ممتلئا . ولهـــذا اكـاد اشعر ، صدقني يا زياد ، اني استحق اكثر من هذا العمل . لا ، استغفر الله ، انا لا احس بالذل منه ، ولكني اريد عملا اكبر . فهل هناك مأخذ علي اذا اردت ان احسن وضعي ؟ لنتركها للزمن ، على اي حال .

والان ، هات يا عم سعيد اوقية وربع الاوقية مـــن الموزات . لا . بل من لحم البقر . اعطني معها بعض العظم . نظفها قليلا يا عم سعيد . سندعو لك بالخير ان شاء الله . سلمت يداك .

احس اليوم بجوع غريب ، ولكن يـــا سبحان الله ،

كيف يذهب جوعي سريعا بمجرد ان ابدأ بالاكل ، ولا آخذ بضع لقمات الا واحس الشبع ، حتى اني لاستغرب كيف كنت جائعا الى ذلك الحد . وهذا الباذنجان الذي احمله، لذيذ ، ومن حسن الحظ انه سريع النضج . سأقترح على ام زياد ان تقلي منه حبة او حبتين ، ويبقى الباقي لغداء الغد مع اللحم . وبعد ان اتنشف ببضع حبات من الزيتون، آخذ زياد في حضني ، واتفرج عليه ، كيف يداعب العصفور القطني الاصفر . سيلاعبه قليلا ، ثم يضعه امام رأسه في الفراش ، وينام والبسمة على شفته . انتظرني يا زياد . فبعد عشر دقائق على الاكثر ، سيكون العصفور امامك ، فتحمله بيدك الصغيرة الحلوة ، واحملك بين ذراعي ، واقبلك ، واشمك ، واشدك الى صدري . انتظرني يا زياد ، انتظرني .

ولكن ما هذا ؟ لماذا يضرب هذا اللعين ذلك الصبي ؟ اسمع انت ، لماذا تضربه ؟ انه اخوك؟ جريمتك اذن مزدوجة! الا تسمع بكاءه وتوجعه ؟ الا ترى حبات العلكة تسقط من صندوقه الكرتوني الصغير ، فيلمها واحدة واحدة ، ولا تنحني لمساعدته ايها الشقي ؟ من علمك هذه القسوة ؟ تقول انه يبكي لانه لم يبع كل محتويات صندوقه ؟ وهل تضربه من اجل ذلك ؟ انه سيبيعها غدا . تقول ان اباكما سيضربكما لهذا ؟ وقد يطرده فينام على العتبة ؟ ولكن اي اب هذا ؟ انه مريض ؟ يا للجبار ذي العاهة اذن! ولكن هل يكفي ان يكون مريضا ليفرض على طفله هذا كله ؟ تقول انك بعت كل حباتك ، وان اخاك لم يبعها كلها ؟ ساعده اذن ليبيع يكفي ان يكون مريضا ليفرض على طفله هذا كله ؟ تقول انك سيشفق عليك دون شك ، فهو صغير ، ولا يملك القدرة مثلك ، ولا القوة على الجري . تقول انني لا اعرف اباكما ؟ انا طبعا لا اعرفه ، ولكني اعرف كل اب . تؤكد انه قاس جدا ؟ ولكن هذا غير ممكن . تقسم بالله انه سيضرب اخاك الصغير ضربا شديدا ؟ حسنا، ولكن انت ، انت لماذا تضربه ؟ لانه يريد ان يبيعك انت باقي حباته ، فيكون الضرب من نصيبك ، لا نصيبه ؟ كفى ، كفى .. هذا ادعاء سخيف . يبكي لانه لم يبع كل حباته ، هذا مفهوم. فدعه اذن . تعال انت ، تعال ايها الصغير . امسح دموعك ، وكف قليلا عن البكاء . كم عمرك يا بني ؟ اربع سنوات ؟ انك اذن بعمر ابني زياد . ليحفظه الله وليحفظك ! كم عدد الحبات التي بقيت معك ؟ تسع حبات ؟ وكم ثمنها ؟ تسعة فرنكات . خمسة واربعون قرشا . نعم ، خمسة واربعون قرشا . تقول خمسة واربعون قرشا . ولكن... ولكن ... العصفور القطني الاصفر ؟ العصفور الاصفر ؟ العصفور ؟ القروش الخمسة التي تبقى لن تكفي لشرائه حتما . ما العمل اذن ؟ يا الهي ! ساعدني على حل هذه المشكلة . عدت الى البكاء ايها الصغير ؟ ارفع وجهك وانظر الي . عجبا ! كيف لم اتنبه الى ذلك . انك تشبه « زياد » . اقسم بالله انك تشبهه . وعمرك مثل عمره . ولكني انا ... لا اضربه . انا لست مريضا ولله الحمد . ولو كنت مريضا ما ضربته اطلاقا . كفى ، كفى ، لا تعد للبكاء . انك تطلب مني ان اتركك ؟ ولكن قف قليلا . تعال.

انني لا اريد ان يضربك ابوك. انه لو ضربك ، فكأنني اضرب زياد . تصور انني اضرب زياد ! لتقطع يدي قبل ذلك ! تعال ، خذ . هذه نصف ليرة . هذه نصف الليرة. اشتريت منك الحبات الباقية . هاتها. لا تدهش لهذا يا بني . هاتها . والقروش الخمسة الباقية ؟ لا . دعها لك. خذها ايضا . انها هدية ... هدية لك من زياد . نعم . ابتسم هكذا . امسك يد اخيك . وانت لا تضربه بعد الان . لا تضربه ابدا . انه صغير ، وجميل ، ويشبه ابني زياد . سمعت ؟ لا تضربه ابدا . والان ، سلما لي على ابيكما . انني لا اعرفه ، ولكن قولا له مع ذلك ان ابا زياد يسلم عليك . مع السلامة. مع السلامة .

ولكن عجبا ! لماذا يثقل السل على ظهري ؟ مع ان ما فيه غير ثقيل ؟ ماذا ؟ لكأن بؤس العالم كله يوضع فيه ، كأن يدا خفيه تجمع بؤس الدنيا لتضعه فيه ، فيثقل ، ويثقل ، ويثقل . انني لا اطيق بعد ان احمله . ولكن ليس البؤس وحده . بل الظلم ايضا . البؤس والظلم . لا بد لي من ان اجلس لحظات على هذه العتبة . حتى ارتاح قليلا . حتى اقوى من جديد على حمل السل. حتى يخف السل. لا بأس . ارتحت قليلا . فلانهض ، حتى لا اتأخر على البيت . حتى استطيع رؤية زياد قبل ان ينام .

أعطاك الله العافية يا ام زياد . خذي . هذا بعض الطعام . لقد سترها الله علينا اليوم . اسمعي هذه القصة يا ام زياد . ولكن اين زياد ؟ انني لا اسمع صوته. تقولين انه نائم ؟ ولماذا نام باكرا ؟ لقد انتظرني طويلا ؟ ولم يكف عن السؤال عن العصفور الاصفر ؟ ثم تعب ونام ؟

لا بأس يا ام زياد . غدا . غدا . ساشتري له العصفور الاصفر . من كل بد . ساشتريه باجرة اول حملة احملها . من كل بد .

اية نظافة في هذه الغرفة يا ام زياد ! سلمت يداك. ليس عندي مال ، يا ام زياد . ولكنك انت مالي وثروتي . انت وزياد .

هاتي نأكل لقمة . لاني احس بالنعاس اليوم يا ام زياد . لا ادري لماذا . اريد ان انام . تصبحين على خير. انت وزياد .

ولكن يا الهي .. ماذا ارى ؟ حمدا لك انه كان مناما! لقد حلمت بان زياد يتحول الى عصفور ، عصفور صغير اصفر ، ويروح يدوم في هذه الغرفة ، ثم يخرج من النافذة، ويطير بعيدا ، بعيدا .

ابقاك الله لي يا زياد . ولتظل هذه البسمة على شفتيك ، في يقظتك ونومك . كأنها جناح ملاك يرفعليك. تعال اقبلك في جبينك ، تعال زياد. قبل ان اعود الى النوم.

ولكن النوم يقاومني . واشعر ان عيني مفتوحتان على سعتهما ، تحدقان في الليل . في هذا الليل الكثيف. انني احسه ثقيلا ، كما احسست السل على ظهري ، منذ ساعات . اريده ان ينقضي سريعا ، وان يخف . فمتى تطلع ايها الصباح ؟

سهيل ادريس